شاعر الماء بسام صالح مهدي
والسكن تحت المهيمنات
همسات الأسى

محمد ونّان جاسم

اعتَمَدَ الشاعر بسام صالح مهدي في رسمِ شخصيتهِ الشعرية على مبدأ التطويق الذاتي من خلال محاولة غلق منجزهِ الشعري ببيان (قصيدة الشعر) الذي وقعهُ مع شعراء آخرين هم محمد البغدادي وعارف الساعدي ونجاح العرسان ومضر الآلوسي ورشيد حميد الدليمي وعلى الرغم من أن الشعر لا يتقنون إلا إن هذا الالتزام خلق شعرية واضحة في عموم نتاج الشعراء الستة ومنهم بسام صالح مهدي الذي حاز في العام الماضي جائزة وصيف أمير الشعراء.

سنحاول في هذه القراءة تلمس المهيمنات البنائية التي تأسس في ضوئها النتاج الشعري لبسام صالح مهدي ومعلوم أن المهيمن الشعري لا يخلق اعتباطاً، بل يخلق على الأغلب بمؤثرات نفسية أصيلة وعلى النحو الآتي:

١ـ المهيمن الرؤيوي: في شعر بسام انحياز واضح نحو صورة العقل الخالص التي تميل إلى الذهنية الدائرة بين حقلي السريالية والرمزية والتي تكون متعالقة مع الأثر النفسي الغالب في ذاته ـ أقصد ذات الباث ـ يقول:

كلنا أمكنة تَشتهي أن تكون شَفَة مُعلِنَة أو بقايا جنونْ

إن البناء الشعري في هذا النموذج الذي اخترناه يؤسس لتمازجية ذهنية تستدعي تفكير المتلقي لاسيّما في حيز الانزياح الدلإلى الذي نقل البشر إلى أمكنة ثم أعادها إلى البشرية المجتزأة في فعل الاشتهاء المبثوث من الشفة، والشفة لها اشتغالات سيمائية تشتغل اشتغالاً مؤشرناً فهي إشارة اللذة في لغتها الأيروتيكية وإشارة الاحتجاج والتمرد في لغتها المتعالقة بالنص المختار.

ويقول:

أرخي شراع العمر من صدره ونام في أحضانه الجدولُ

فعبّأ الصحراء في جيبه ذاكرة عن نفسها تسأل

فقام من أهدابه منزل ومن يديه السور والمدخل

نلحظ في هذا المقطع الذهن السريإلى من خلال نوم الجدول وتعبئة الصحراء وقيام المنزل من أهداب الموصوف، أمّا الذهن الرمزي فيبدوا واضحاً من خلال الأمن المتكئ على دالة النوم والاستقرار المتكئ على دالة المنزل.

أن هذا التحايث بين الدالتين خلق علاقة نصية تناغمت مع سعي الشاعر إلى الخلق الشعري بوساطة خلط الأماكن الجسدية بالأماكن الطبيعية فالشراع والجدول والصحراء والمنزل والسور والمدخل كلها دوال ذات صبغة طبيعية بينما يقابلها الصدر والحضن والجيب والأهداب واليد دوال جزئية من الجسد.

٢ـ المهيمن الموضوعي: وتؤكد نصوص الشاعر المختلفة على مبدأ العلاقة مع الآخر الذي بدا مشوهاً في المتن الشعري ـ على الأغلب ـ لاسيّما الصديق والملحوظ أن هذا الأمر اشتغل معادلاً موضوعياً في منجز الشاعر وكانت له الغلبة والهيمنة.

يقول:

والصحاب الذين لا شيء عندي غيرهم هم تراثي المنهار

ويقول:

كم أطفأ الأصحاب عبرته وتاهوا بين أنفاس الظلام

ويقول:

فالأصدقاء الخائنون

نموا على أكتاف صبري

أكلوا من الشجر العقيم وأنجبوا أسماء كفري

ويقول:

فكم أتعبتني دروب المدارس أتعبني أصدقاء الطريق

فعدت بنعلين مخصوفتين

ويقول:

وسلِ الصلصال عن صحب مضوا كلهم يحمل وجهاً سرقهْ

نلحظ أن الشاعر ركنَ الأصدقاء في حيّز السلبية فالأصدقاء تراثه المنهار وخائنون يأكلون من الشجر العقيم وسارقون ومتعبون والظاهر أن هذا الإسقاط الشعري ناتج عن سبب اجتماعي خارج النصّ بطبيعة الحال ولكن هذه الإشكالية الدلالية أدخلت الشاعر في جانب الضعف الإقناعي لانحياز الشاعر نحو الشمولية والشمولية في كينونتها تحمل شيئاً كبيراً من الضعف الدلالي.

٣ ــ المهيمن اللفظي: بدا المعجم الشعري لقصائد الشاعر ينتمي في معظمه لحاضنة واحدة هي الماء ومجاوراته وقد وضحت هيمنة هذه الدالة من خلال الاستعلاء النصي لمجموعة الشاعر الثانية (الماء يكذب) ، والألفاظ الآتية مثال على ما ذهبنا إليه:

المراسي / البواخر / الينبوع / الغيم / الندى / المجرى / الطين / السحاب / الدلاء / الظمأ / المطر/الشرب / الغرق ....الخ.

أمّا الماء عند الشاعر فهو المهيمن في (الماء يكذب) و(لا ماء يهرب من ضفافي) و(ماء لم يصدّق ظنه المجرة) و(أنهكتك الدلاء يا قلبَ ماءٍ وأباحت مياهك الأغوار) و(كخوف كل ماء) و(ماء تنفس) و(كل الماء يكذب) و(كل هذا الماء يغري) و(عشرون نذرا في شفاه الماء) و(هو طفل هذا الماء) و(تمطر حبراً وتمطر ماء) و(لم تشارك ماء حاسدها) و(هل يكفيك تسمية الحنين بأنه ماء وطين) و(كم تناثر الماء) و(لا أغراه ماءٌ) و(سرق الماء فأخفي غرقه) و(سرق الماء ولمّا لم يزل) و(ماءٌ لم يصدق ظنّه المجري) و(قل للحبيبة لا تخافي لا ماء يهرب من ضفافي) و(أنهكته الدلاء يا قلبَ ماءٍ) و(ثرثرات الماء في عينيه بوح) و(كم تاه ماءٌ) و(يرش من الورد ماءً) و(أكلّما مات ماءٌ ظل يعبده) و(الماء يغفو) من خلال ما تقدّم نلحظ سعي الشاعر إلى تكثيف الماء بوصفه دالة طبيعية فضلاً عن وصفه المكون الأساس للخلق ومن خلال الدال والمدلول صنع الشاعر علاقة جدلية بين الطبيعة والإرادة.

٤ ـ المهيمن الإيقاعي: الإيقاع مصطلح إشكإلي اختلف النقاد في تحديد ملامحه ومواطن حضوره وعندي الهيمنة الإيقاعية تحقق رتابة في النص وهنا لا أقصد حضور الإيقاع طبعا وإنما هيمنة نوع واحد من الإيقاع وهذا الأمر توافر في نصوص الشاعر بسام صالح مهدي فالشاعر اهتم بالإيقاع الخارجي كثيراً وأهمل الإيقاعيين الداخلي والبصري فنلحظ أن أغلب قصائد الشاعر كانت منتمية للشكل العمودي ومتكئة على البوح والإطلاق وأرى أن سبب ذلك المنحي نفسي لا جمالي وأعزوه للمهيمن الموضوعي الذي أشرنا إليه، لقد تحقق البوح بوساطة الاتكاء على الهاء القافية وبحسب الآتي:

١ـ قصيدة مدينة الليل:

تجرّني خيل أيامي إلى طرقٍ قد عفّرت وجه أعوامي حوافرها

٣ـ قصيدة أحزان لسيدة الصحو:

وتدفن أحزاني رمال توهمي وفوق رمال الوهم بانت رؤوسها

٤ـ قصيدة القدس:

أرض مؤجلة نمت أعذارها تبيض في شَفة المساء ثمارها

٥ ـ التفاتة القمر الأسمر:

قمر طفل على خديه بوح ثرثرات الماء في عينيه بوح

٦ ـ رجعة الشهيد:

لمن هذا الجلال لمن تجلي وأرخي سفح دمعتيه وصلي

٧ ـ هو الذي:

سرق الماء فأخفي غرقه ونأي في ليل عين مغلقةْ

٨ ـ أرملة في جَنوب القلب:

مازلت تعتقدين أنك سنبلة أو أنك امرأة بطعم قرنفلةْ

٩ ـ شامة في وجه القرية:

جدي هو النهر المعطر بالسحابه

هو كلّ من أخفي بضحكته عذابه

مما تقدّم يبدوا أن الشاعر في نماذجه المختارة قد نحى منحى مقصوداً في الاختيار المقصود الواعي للقافية وهذا يؤيد أن الاختيار المقصود يعدّ جزء من الجمالية.

أخيراً نقول أننا حاولنا في هذا المقام أن ندرس جانباً من جوانب الإبداع عند الشاعر بسام صالح مهدي الذي تعمد بعض الطارئين على الشعر والنقد أن يغضوا البصر والبصيرة عن جمالية شعره لسبب لا علاقة له بالموضوعية التي يسعي إليها الناقد الحصيف كما نؤكد هنا أن الشاعر بسام صالح وزميله الدكتور فائز الشارع ومجموعة بيان قصيدة الشعر بشقيها الإبداعي والنقدي قد أسسوا نصّاً شعرياً تميز بالجدة والرصانة.

2010/05/30